انقضاء العالم

شهدنا مذاكرة لجماعة من علماء مدينة جنيفا ببلاد سويسرا في مقالة للمسيو كامل فلامريون الكاتب الفلكي المشهور ضمنها اراء بعض العلماء عن آخر ايام البشر وافرغها في قالب الروايات والحكايات تشويقًا الى مطالعتها وتقريبًا لقضاياها العلمية من التصوُّر وقد قسمها الى ستة فصول نوردها على التوالي بتصرُّف يناسب المقام ونختمها بذكر ما قلناهُ عنها في تلك المذاكرة

الفصل الاول

مرَّ على الارض حوالا اثنين وعشرين مليون عام منذ وجدت الكائنات الحية فيها الى ان بادت عنها وقد انقسم زمان هذه الاحياء الى ست مُدَد جرت فيها على سنن الارتقاء الى غاية كمالها . المدة الاولى مدة الاحياء الدنيا الساذجة مثل القاعيات والاجسام الرخوة وذوات النشور وكلها صمَّاء بكماء لا تكاد تبصر وقد استغرقت عشرة ملايين سنة فاكثر من الزمان . والمدة الثانية مدة الاسماك والحشرات ونحوها وقد ارتقت الحواس فيها وامتاز بعضها عن بعض . ووجدت فيها النباتات الدنيا من مثل الاثل والسراخس ونحوها وقد استغرقت ما يزيد عن ستة ملايين سنة . والمدة الثالثة وتعرف بالدور الثاني هي مدة الزحافات والاطيار والاشجار ذات الكيزان . والمدة الرابعة وتعرف بالدور الثلاثي هي مدة ذوات الثدي والقرود والنباتات العليا ذات الازهار وفيها امتازت فصول السنة الاربعة بعضها عن بعض . والمدة الخامسة هي مدة الانسان في سذاجته وانقسامه الى افخاذ وبطون وقبائل وامم وشعوب ومروره بعهد الخشونة والتجنيد والتجييش والحرب والقتال وقد استغرقت ثلثمئة الف سنة من الزمان . والمدة السادسة هي مدة العقل وتعويل البشر عليهِ في احوالهم واعمالهم وقد استغرقت نحو مليوني سنة

قال الراوي وهرمت الارض وشاخت بعد انقضاء تلك المدد وبردت الشمس حتَّى كادت تجمد من طول المدى . وكانت الارض قبلها طريَّة ندية تغمرها البحور العظام من كل جهاتها ثم حدث فيها ما رفع بعض جوانبها وحسر الماء عنها فتكونت الجزائر اولاً منها ثم اتسعت اليابسة حتَّى صارت قارات واسعة واصبح سطح الارض ماء ويبسًا فضاق اتساع الماء بظهور اليبس وقلَّ بخارهُ في الجو عمَّا كان عليهِ فلم يعد الجو يحفظ حرارة شعاع

الشمس قدر ما كان يحفظها وهو مشحون ببخار الماء شحنًا وانحطت درجة الحرارة شيئًا فشيئًا حتّى اذا جاءت مدة البشر الاولى التي استمرّت ثلثمئة الف سنة وتدرجوا فيها من الخشونة والبداوة الى التمدن والحضارة واستبدال القوى البدنية بالقوى العقلية كان ربع وجه الارض يبسًا وثلثة ارباعه ماء وكان بخار الماء قد قلّ كثيرًا في الهواء ولكن لم يزل كافيًا لحفظ الكثير من حرارة الشمس فيه غير ان الامطار التي كانت تتصاعد من ماء البحر وتهطل على البر لم تكن كلها تعود الى البحر بل كان بعضها يغور في الارض و يدخل الصخور المسطحة لها ولا يخرج منها فنأتي عن ذلك ان مياه البحار قلّت على توالي الاعصار والاحقاب فانخفض سطحها وضاق اتساعها ونقص بخرها وقلّ بخارها في الجو وسهل على حرارة الشمس التي تفيض على الارض نهارًا ان تشع منها ليلاً الى الفضاء لقلة البخار المعاوق لها فافضى ذلك كلهُ الى اشتداد البرد على الارض وتراكم الثلوج على رؤوس جبالها وفي الاصقاع القطبية منها حتّى نزلت عن قمم الجبال نحو السفوح وامتدّت من الاصقاع القطبية المتجمدة الى الاصقاع المعتدلة

هذا ما اصاب الارض واما ما اصاب الشمس مصدر نور الارض وحرارتها وعلة حياة كل حيّ فيها فانها ما زالت تبعث نورها وحرارتها الى كل جانب من جوانب الفضاء البارد المحيط بها حتّى نفد الكثير من قوتها وهبطت حرارتها . وكانت في بدء ظهور الاحياء على الارض بيضاء ناصعة نقريًا من شدّة حموها وانقاد الهيدروجين عليها فغلبت الصفرة عليها لقلة حرارتها في مدّة البشر الاولى وصارت كالذهب المتّقد ثم رجعت تزداد صفرة كلما قلّت حموًّا حتّى ضرب لونها الى الحمرة لنفاد هيدروجينها وتأكسدها و بعبارة اخرى زالت غلالة النور المحيطة بها وازدادت كثافتها وتقلّصت التموّجات الشابة عنها وقلت الحرارة المنبعثة عنها

وبسبب ما تقدّم من التغيرات التي طرأت على الارض والشمس انحطت حرارة سطح الارض من دور الى دور واشتدّ البرد عليها وتغيرت هيئتها باحتلال الماء محل اليبس واحتلال اليبس محل الماء مرارًا متعددة واتسع اليبس وضاق سطح الماء حتّى لم يبقَ منهُ الاّ ربع ما كان عليهِ في مدّة البشر الاولى . وبقيت الفصول تتعاقب الاّ ان حرّ الصيف تلطف و برد الشتاء اشتدّ واستوى الصيف والشتاء قرب خط الاستواء وطفت الثلوج حتّى كست المنطقتين المعتدلتين مع المنطقتين المتجمدتين وتحولت المنطقة الحارة على جانبي خط الاستواء الى منطقة معتدلة ولم يبقَ على الارض مسكن للبشر الاّ فيها وفي الاودية الحارة التي لم تغطها الثلوج

واما البشر فانهم ما زالوا يزيدون حسنًا في خلال تلك الاحقاب حتّى بلغوا غاية من الجمال والكمال وابطلوا الاعمال المادّيّة واستبدلوا القوى البدنية بالقوة الكهربائية التي كانوا يستمدونها من سطح الارض كلهِ ويعملون بها في الحال مهما شاؤوا من الاعمال . واصبحوا كلهم جيلاً واحدًا ولم يبقَ بينهم اثر للاجيال المتعددة والنحل المختلفة التي كانت في الاعصار السالفة الاّ انهم لم يكونوا كلهم سواء بل كان فيهم الرفيع والوضيع في الادراك والمقلم والنبيه والخامل والهمام والغافل وانما زال من بينهم البائسون والعاجزون والمبتلون بالعلل القتالة والادواء العضالة ونحوهم من الذين استحوذ عليهم الحرض وتولاهم الشقاء والمرض

الفصل الثاني

وفي سنة ٣٢٠٠٠٠٠٠ من الميلاد كان التمدن قد ضرب اطنابهُ في قلب افريقية في مدينة تسمى مدينة الشمس واقعة قرب خط الاستواء وفائقة في الاتقان والبهاء والعمران وورد في تاريخها انها احترقت مرارًا وأُخربت تكرارًا ثم بنيت المباني الشامخة على اطلالها وشيّدت الصروح الباذخة على ردمها ففاقت ما كانت عليهِ في الفخامة والعظمة وكان الدهر قد طوى ذكر باريس ولندن وروميه وقينا وطمرتها الثلوج منذ مئة الف سنة فباتت نسيًا منسيًا ولم تكن شيئًا يذكر بجانب مدينة الشمس التي اضحت عاصمة جمهوريّةٍ اهلها من الاشراف الذين ادركوا في تمدنهم اقصى غايات الترف والبذخ والتمتّع باللذات وتركوا مسرات بابل وطوروميه وباريس العابًا للولدان واستخدموا كل ما اتّصل اليهم من العلوم والفنون والصناعات بعد طول عهد تقدمها وتوسّعها لتكثير لذّات الحياة وتعظيم مسرّاتها وافراحها وزيادة تأثير البسط والهناء في النفوس حتّى امست اعصابهم في تهيج دائم وانفعال شديد مستمرّ من تأثير الانوار الكهربائية والروائح العطرية والانغام الشجية ولم تَعُد تجد راحة في الليالي الزاهرة ولا ظلال الايام الساحرة فكانت قواها تخور بعد عشرين سنة او خمس وعشرين ويموتون عياء وكلالاً حين كان اسلافهم يتمتعون بربيع الصبا وزهرة الشباب

ولما احسّوا باشتداد البرد واقبال الشتاء الدائم عليهم استعدوا لهُ بتدفئة الجو حولهم واطلاق الاكسجين فيهِ فصار اتمّ من ريح الصبا اعتدالاً واشدّ من نسيم الرياض بللاً تسرع الاجسام فيهِ نماء وكمالاً كما تسرع انحطاطًا وانحلالاً ولذلك جعلوا يعمّون سريعًا حتّى يبلغوا اشدّهم ثم يخطون ويهرمون ويموتون سريعًا وبلغ جمال الصورة والزي فيهم غاية الكمال لشغفهم بالحسن شغفًا لا مزيد عليهِ وما زالوا على مثل تلك الحال حتّى شاع الزي (المودة) بين اكابرهم بان لا يلد نساؤهم الاولاد ولا يرتبكنّ بامر تربيتهم لئلاّ يحرمنَ لذات العيش

من اجلهم . فانحصرت ولادة الاولاد بنساء الطبقات الدنيا من الناس وبتن عرضةً لتأثير البرد قبل غيرهنّ فنتك فيهنّ وبادهنّ على تمادي الايام . وصحا الناس حينئذٍ من سكرة اللذات وعلموا ان النساء الباقيات لم يعدنَ يستطعنَ ولادة الاولاد وانهم اوشكوا ان يستاصلوا شأفة الذرية البشريّة فندموا ولات ساعة مندم وسنّوا قانونًا بان الجمهوريّة وما فيها تكون ملكًا لاوّل امرأة تلد ولدًا

على ان كل ما له بداية له نهاية ونهاية البشر كانت قد دنت ولو اخلفوا النسل ولم تبلَ نساؤهم بالعقر لان الجدب استولى على تربة الارض وفنيت البلاد بالقحط ولم تعد تنتج ما يكفي لطعام اهلها . الاّ ان الناس كانوا يعللون انفسهم باختراع الاختراعات التي تدفع عنهم بلاء الجوع وتطيل بقاءهم على الارض او بان الهواء يعود فيعتدل والشمس تفيض نورها وحرارتها على الارض فتحيي رميمها . ولما يئسوا من تلك الاماني والاحلام كثر اسفهم وتحسرهم واشتدّ لوم بعضهم لبعض وتعيير بعضهم لبعض بانهم هم الذين جرّوا هذا البلاء على البشر والتوهم في المهالك وعقد الباقون من اعضاء المجمع الطبي مؤتمرًا اشتدّ فيه الحجاج واللجاج حتّى اوشك ان يفضي الى التشاجر وجعل كلٌّ يتهم صاحبهُ بانهُ هو الذي اشار على الناس تلك المشورة السيئة فابطل نساؤهم ولادة الاولاد واستعرت نار النزاع بين رئيس المجمع وزعيم بعض الاحزاب حتّى تصارعا بالسيوف اطناء لغليلها وقضوا سنة من الزمان وهم يبحثون المباحث الفسيولوجية والسياسية على غير فائدة

وكان هناك غلامٌ يسمى الختام وهو آخر ولد وُلد في الطبقات الدنيا من اهل تلك الجمهوريّة وكانت والدتهُ العجوز لاتزال حية دون غيرها من الامهات فدخل على الاطباء والنواب وهم جالسون في احدى جلساتهم وجعل يلوم ولاة الامور على قلة عنايتهم وقصر نظرهم في العواقب ويذم الناس لانكبابهم على الملذات والارجاس ويظهر غباوتهم وحماقتهم وتهافتهم على الهلاك بكليتهم وقال لهم اعطوني احدث مركبة هوائية عملت في معامل الحكومة وانا اركبها واطير بها في جو المنطقة الاستوائية واطوف كل بلاد فيها لعلي اجد بلدًا ماهولاً يسعنا فوقع قوله هذا موقع القبول والاستحسان وبنوا عمارة من المركبات الهوائية ركبها كل قوي البنية وطاروا بها يطلبون البلاد المأهولة لعلهم يجدون فيها نساء يلدنَ الاولاد ويحفظنَ الذريّة

الفصل الثالث

فلما غابوا عن مدينة الشمس نظروا واذا الارض كلها مكتفنة بالثلج والجمد وقد امست

قفاراً بيضاء لا انيس بها ولا صوت حيّ يتردّد في قبعاتها ولا ترى العين بها الاّ جمداً يعلو جمداً وثلجاً يزحزح ثلجاً فينكشف ما تحتهُ من قمم الجبال او رؤوس الابراج واطلال المدن التي كانت عامرة زاهرة ايام التمدن والعمران وقبل ان يهرأ البرد الارض وتكفنها الثلوج بالاكفان . وما زالوا يطوون الليالي والايام وهم لا يرون الاّ ثلجاً ابيض ياخذ بالابصار تصيغهُ الشمس عند المغيب بلون احمر قانٍ فكانها سفكت عليهِ دم الانسان حتّى هلك نصفهم برداً وجوعاً وانقطع املهم من الحياة . وفيما هم ينظرون يوماً رأوا خرائب مدينة عظيمة من بعيد ونهر ماء يجري بالقرب منها فادارو مركباتهم اليها ولما دنوا منها بصروا رجالاً يمشون بجانب النهر فصاحوا مستبشرين وهم لا يصدقون عيونهم ونزلوا بجانب النهر حيث ربطوا المركبات واسرعوا الى مقابلة الرجال فاستقبلهم هؤلاء معانقة ورحبوا بهم ترحيب من كان قد يئس من الحياة فاستبشر بالنجاة وظنّ انهُ لم يبقَ في الارض سواهُ فوجد غيرهُ يسعى اليهِ . وكان في مقدمة هؤلاء الرجال شيخ ملتفٌ بجلد الرنّة وقد غارت عيناهُ وابيضّ حاجباهُ وشابت لحيتهُ واصفرّت جلدة راسهِ حتّى امست كالعاج القديم وكانت الهيبة بادية على طلعتهِ وقامتهِ المنتصبة وبنيتهُ تدل على انهُ كان من الاشداء الذين قاوموا الدهر وقاسوا الشدائد ولم يطأطئوا الراس حتّى انطفأ مصباح الرجاء منهم واشتدت ظلمة اليأس عليهم . غير انهُ لما رأى المركبات مقبلةً بالرجال انتعشت روحهُ فيهِ ولاح السرور على محياهُ ودنا اولادهُ ورفاقهُ والقوا انفسهم بين اذرع ضيوفهم ثم اوقدوا لهم ناراً عظيمة واصطادوا سمكاً من النهر وهيأوا لهم غذاء وجلسوا جميعاً لتناول الطعام

فقال لهم القادمون اننا جئنا من مدينة الشمس الشهيرة عاصمة البلاد الاستوائية الافريقية ولم يبقَ فيها الاّ قليلون غيرنا وقد اباد البرد جمهورنا حتّى امست عاصمتنا من جملة المدن المهجورة . ويخيّل لنا اننا تهنا عن الطريق وابعدنا عن خط الاستواء أفليس هذا مصبّ نهر الامازون

فاجابهم الشيخ ان نهر الامازون الذي لا تزال مياههُ تجري على دائرة خط الاستواء لم يعد شيئاً يذكر بالنسبة الى ما كان عليهِ في غابر الدهر حينما كان يشبّه بالبحور العظام لاتساعهِ على ما رواهُ الرواة . وفي ذلك الزمان كانت بلاد برازيل وجمهورية ارجنتين وكولمبيا باميركا الجنوبية في أبّان زهوتها . وكانت الولايات المتحدة في اميركا الشمالية مقسومة ولايات عديدة وفرنسا وانكلترا والمانيا وروسيا في اوربا تتنازع وتتناظر على السبق والسيادة في عالم السياسة والاوقيانوس الاتلنتيكي يغمر بمائهِ الخضم كل القفار الواقعة ما بين خرائب

مدينة نيويورك ومدينة هافر وخرائب برنمبوكو وداكر حيث لا ترى العين الآن الاَّ ثلجًا وجليدًا وكانت قارة الهند الغربية العظيمة جزائر عديدة يفصل بينها البحر المحيط كما لا يزال مرسومًا على الخارتات القديمة المحفوظة في المكاتب العظيمة تحت الثلوج . وكانت البحور حينئذٍ اوسع واعمق مما اتصل بعهد آبائنا واجدادنا ومياهها تجرف ثم تهطل على الارض امطارًا وتجري انهارًا غزارًا ولم يتطرّق الثلج والجليد الى بلادنا في تلك الازمان . اما الآن فكل ذلك قد تغيَّر وبانت الارض على شتا الخراب والدمار فحركتها على محورها قد بطؤت والايام قد طالت والقمر قد ابتعد عن الارض والشمس قد بردت وتمت نوة علم الهيئة واكتست الارض ثلجًا من قطب الى قطب ولم يبقَ فيها مسكن للبشر الاَّ السهول المحاذية لخط اشد الحرارة وهو يمرُّ باميركا الجنوبية حيث نحن وباواسط افريقية من حيث جئنا

قال وقد فارق التمدُّن اوربا قبلما طغت عليها ثلوج القطب الشمالي وسيبيريا والبلندا وجبال قوقاف والبرن والبا باحقاب طوال وانتقل منها الى اميركا وذلك لان اهالي اوربا امتصوا دماء بعضهم البعض واباد بعضهم بعضًا فان حكومات بعض بلدانها اقنعت الوف الاهالي بانهم لا يحرزون الشرف والمجد والفخر الاَّ بلبس الحلل المختلفة الازياء والالوان والانتظام في ما كانوا يسمونهُ بالعسكرية وينقل بعضهم بعضًا على صوت الانغام الموسيقية وهو ما كانوا يسمونهُ بالحرب . وما زالوا يعتقدون هذا الاعتقاد الغريب حتَّى اكتنفهم اهل الصين ولم يبقوا لهم عينًا ولا اثرًا . وقد ذكر في تواريخنا الحديثة ان القدماء ارسلوا الحملة بعد الحملة على ثلوج اوربا للبحث عن خرائب باريس ولندن وبرلين وروميه وفينًا وبطرسبرج والنقب في آثارها فوجد الناقبون آثار الحصون والقلاع والمكنات العسكريَّة ودور الاسلحة وعثروا بشيء كثير من الاسلحة والذخائر فاستنتجوا منها ان سكان تلك المدن كانوا في حال الخشونة والرعونة وقلما يبرزون على المجاوات في اخلاقهم . ويؤيّد ذلك ما ورد في كتب التاريخ القديمة التي حفظت في المكاتب العظيمة حيث يؤخذ منها انهم كانوا اجلافًا خشني الطباع شرسي الاخلاق يعذبون بعضهم بعضًا اشد التعذيب ويقتلون بعضهم بعضًا بالسم او بالسيف وغيره من الاسلحة . وكانت شرائع هيئتهم الاجتماعية تجيز لهم بل توجب عليهم قتل الجانين منهم على اساليب مختلفة فكانوا تارةً يقطعون رؤوسهم بالسيوف والنؤوس ونحوها وتارةً يميتونهم صلبًا وخنقًا وكثيرًا ما كان الغالبون في الثورات التي حصلت عند تلك الشعوب المدعية التمدن يوقفون المغلوبين على الاسوار والروابي ويقتلونهم باطلاق الرصاص عليهم . وروى المؤرخون ايضًا انهم كانوا يعينون الجلادين ويدفعون

لهم الاموال ليجلدوا الناس ويكووهم بالحديد ويكسروا سوقهم ويسلخوا جلودهم ويسملوا عيونهم او يقلعوها ويجدعوا انوفهم ويقطعوا السنتهم ويخلعوا مفاصلهم الى غير ذلك من انواع العذاب ثم يشهرونهم في الاسواق ويحرقونهم احياء في الساحات بمشهد من جماهير الناظرين وقد صدق شرّاحنا حيث قالوا ان اولئك الجدود الاقدمين لم يستحقوا ان يسموا بشرًا لانهم لم يتصفوا بالصفات الانسانية

فلو باد الناس في تلك الازمان لمضوا غير مأسوف عليهم . ولكن قضت الايام ان يتعاقب بعدهم الانام ويرتقوا في مراتب الانسانية والكمالات البشريّة حتّى سطا البرد على هذه الارض فذهب بخصبها واعدمها قوة النماء واباد فحمها وكرمها منذ ازمان واهلك كلأها ومائيتها وحرم الانسان جناها فلم يبقَ لنا ما نقتات به الاّ السمك ولكنهُ كثير علينا لاننا شرذمة قليلة من الرجال ولم يبقِ الدهر بيننا امراةً تخلف نسلاً فان آخر فتاة ولدت بيننا كانت ابنتي وقد اختطفتها المنية حين ولادتها

فلما سمع ضيوفهم هذا الكلام غابوا عن الصواب وخيل لهم ان صواعق السماء انقضّت عليهم فاخمدت انفاسهم وصاح زعيمهم ألم يبقِ الدهر بينكم امرأةً ولو واحدة فان بلادنا لا تزال كثيرة الثروة والخيرات وقد جئنا في طلب النساء فاذا وجدنا امرأة وهبناها بلادنا بكل اموالها وخيراتها . قال الشيخ أوأنتم ايضًا عدمتم النساء . فنظر بعضهم الى بعض ثم اطرقوا صامتين

الفصل الرابع

قال الراوي واصاب اسيا ما اصاب افريقية واميركا من تراكم الثلوج عليها واهلاكها اهاليها واست جزيرة سيلان آخر ملجإٍ التجا اليهِ البشر فيها . وممّا يُخص اهل اسيا بذكرهِ ان اناثهم كنّ اكثر عددًا من ذكورهم واصوب رأيًا منهم في السياسة واطول باعًا في ادارة الاشغال واصلح لتولي المهام . وقد حللنَ محلهم في النيابة عن الامة لتدبير امورها وتعلّم علم القانون والطب وسائر الصناعات العالية وتعاطي التجارة والصناعة والاشتغال بالعلوم المحضة والممتزجة وما زال امر الذكور يزيد اهمالاً حتّى لم يعودوا يصلحون لحراثة الارض وغرس الحدائق فجعل الاناث يعملنَ كل تلك الاعمال ويستعنّ بالآلات المتقنة والاختراعات البديعة على عمل ما لا يستطعنَ عملهُ بالقوة العضلية . فلما اشتد البرد وتغلب الجدب وضعفت القوة الحيويّة قلت الولادات في سيلان ايضًا وقصرت اعمار الناس وصغرت العيال حتّى صار وجود عائلة كثيرة الاولاد من الامور النادرة فيها ولكن بقي الاناث اكثر عددًا

من الذكور على الدوام كما يشاهد في بعض البلدان الآن . وما زال مخيل الدهر يحصدهم حتّى لم يبقَ منهم الاّ ثلاث عيال فيها ذكران ماتا وهما صغيران وانثا عشرة اتى اسم اصغرهنّ حواء وعمرها ثلث سنوات عاشت امها اربعين سنة فعمرت تعميرًا لم يعهد له مثيل في تلك الايام

ولما دبّ الفناء في عاصمة سيلان واستحوذ الخمول على اهلها صغرت همهم وذهب نشاطهم و بطلت حركة اشغالهم واعمالهم ونقلص ظل آمالهم وزال رونق مبانيهم ومنازلهم وما عدت ترى فيها الاّ مساكن خالية واطلالاً بالية قد كسنها الطحالب والسراخس واتلفت العنونة ما فيها وغطت افنيتها ومغانيها . ولما زالت سلطة الانسان عنها نشرت الطبيعة راية سلطانها عليها واعادت اليها الاعشاب والاشجار القطبية والاطيار التي تعيش على الثلوج والدببة البيضاء ونحو ذلك من النبات والوحش الذي يصبر على البرد . فامست عاصمة هاتيك العواصم مأوى للادباب والاطيار ومنابت للطحالب والاشجار القطبية ولم يبقَ قائمًا من مبانيها الاّ مكتبتها العمومية الحاوية اخبار المتقدمين والمتأخرين ومؤلفاتهم العلمية وخصوصًا ما يبحث فيه عن انقضاء العالم ونهاية الانسان واما سائر المؤلفات والمصنفات الادبية فابلاها السوس منذ ازمان . ولكن ماذا تجدي التواريخ والمصنفات وقد بطلت الصنائع والاختراعات واُهملت الآلات الكهربائية التي كان عليها معوّل البشر في اعمالهم ومواصلاتهم وحلهم وترحالهم . واستحوذ الخمول على كل احدٍ حتّى لم تبقَ فيهم همة لوصل الاسلاك البرقية التي قطعتها الثلوج و بانوا امّا منفصلة بعضها عن بعض . وعادوا كما كان البشر في غابر الادهار بعد ان كان الاتصال محكمًا بينهم يبصرون بعضهم بعضًا و يخاطبون من اقصاء الارض الى اقصائها باختراعاتهم وكانوا كلهم امة واحدة ولسانًا واحدًا من شمال الارض الى جنوبها ومن مشرقها الى مغربها . فلما فرقت الثلوج شملهم وقطعت اتصالهم اسى اهل افريقية لا يدرون باهل اميركا وكلاهما لا يدري باهل اسيا . ولما باد الرجال من سيلان ولم يبقَ فيها الاّ النساء زال منهنّ ما كنّ فيه من الهمّة والسعي والنشاط وحب السلطة والسطوة والرغبة في السبي والفتنة والمباهاة بورد الخدود و بان القدود فتصافينَ وتحاوينَ واشتركنَ جميعًا في المصاب ونزعنَ ما عليهنّ من الشفوف ولبسنَ اثواب الحداد . ولكن لم يمضِ عليهنّ خمس عشرة سنة حتّى كان البرد قد اماتَ اكثرهنّ وترك اربعًا منهنّ وحواء اصغرهنّ وكانت قد بلغت الثامنة عشرة من عمرها حين خرجت الحملة الهوائية من مدينة الشمس بافريقية الاستوائية وسارت في طلب النساء لحفظ الذرية

الفصل الخامس

ولما علم رجال الحملة انهُ لم يبقَ في اميركا امرأة وان الثلوج طرت كل حي في اوربا منذ ادهار وقطعت اخبار اسيا عنهم منذ اعصار ولم تبقِ املاً بوجود انيس فيها قرَّ قرارهم ان يعودوا من الغد الى ديارهم وقضوا بقية نهارهم في تنقد اطلال العاصمة الاميركية ومشاهدة خرائبها وما بقي قائمًا من آثارها التي جرت بوصفها اقلام الكتَّاب وفاخر بذكرها مشاهير المؤرخين . ثم سألوا اخوانهم الباقين من اهل تلك الديار ان يركبوا الهواء معهم وينضموا الى قومهم فأبوا وقالوا دعونا ننضم الى اباءنا واجدادنا ولا نفرّق بين اجسادهم واجسادنا فلم يصرَّ رجال الحملة عليهم بمرافقتهم وخصوصًا بعد ما كتموا عنهم وجود النساء في بلادهم . وبكروا في الغد وودعوهم وداع رفاق يئسوا من التلاقي بعد الفراق وركبوا المركبات واطلقوا لها العنان في جوانب الفضاء فسارت تشقُّ عنان السماء وتخدُّ الجو خدًّا . واتفقوا قبل السفر ان يظلوا سائرين غربًا فوق خط الاستواء كما ساروا من بلادهم حتَّى يعودوا اليها آملين ان يعثروا باهل اسيا في مسيرهم ان كان لا يزال بها احياء . فقطعوا الجمد الممتد على البحر المحيط ورأوا الثلوج القامرة بلاد سيام وجافا وصومطره وملقًا طبقًا لما كان العلماء قد انبأوا به في غابر الاعصار . ولما اقبلوا على سيلان رأوا بقاعًا لم تتراكم فيها الثلوج واطلالاً لم يطمرها الجليد فحلقوا فوقها واذا هي خرائب مدينة وقد اجتمع في ناحية منها جماعة من النساء باثواب الحداد ووقفنَ ينظرنَ اليهم مدهوشات مذعورات

فانقضوا بالمركبات انقضاض العقبان ولم تمضِ الَّا هنيهة من الزمان حتَّى وقفوا بين ايديهنَّ يطارحونهنَّ السلام . ولو اتفق حدوث ذلك في العصور الخالية حين كان الحق للقوي لا للحقّ لانقضَّ اولئك الرجال على هؤلاء الخمس المنقطعات وطاروا بهنَّ ولم يرقُّوا لبكائهنَّ وعويلهنَّ واتوا بهنَّ الى ديارهم في قلب افريقية كرهًا لاسيما وانهم كانوا كثارًا وهنَّ لم يكنَّ الَّا خمسًا . ولكنَّ تلك الايام لم يبقَ الحكم فيها للقوة والعزة بل للعواطف والاميال والعقل والادراك وحريَّة الاختيار . ولما فرغوا من التحية اخبروهنَّ بضائهم فانقشعت ظلمات اليأس عنهنَّ وابرقت اسرتهنَّ وابتسمت ثغورهنَّ وطابت نفوسهنَّ وبادرنَ الى خلع اثواب الحداد وبرزنَ بملابس تروق الناظر ومحاسن تسبي العقول . ثم تحدثوا ملِيًّا في ما اذا كانوا يقيمون في سيلان او يعودون الى مدينة الشمس بافريقية فكان رأي النساء ان الاقامة في سيلان انسب من حيث الهناء والهدو والسلام ولكنهنَّ لم يجدنَ مناصًا من مرافقة الرجال الى افريقية لان الزاد الذي ذخرهُ الآباء والاجداد اوشك ان

بفرغ والارض لم تعد تنتج نتاجًا والثلج امسى على الابواب بخلاف مدينة الشمس فان أجلها كان في الظن بعيدًا . هذا من جهة ومن جهة أخرى كان الختام زعيم الحملة قد هوى حواء وهويته منذ نظرها ونظرته فاتفقا على ميل واحد ورأي واحد كأنهما جسد واحد ونفس واحدة وكان الختام يحب والدته حبًا شديدًا ويتمنى ان يعود اليها و يقرّ عينها برؤيته ورؤية حبيبته فاقنعت رفيقاتها بالسفر

ولما مضى عليهم اسبوعان في عاصمة سيلان ركبوا جميعًا المركبات الهوائية وانطلقوا يحذفون و يدفدفون قاصدين مدينة الشمس وقد عظم افتخارهم وعاشت آمالهم باخلاف الذرية واحياء السلالة البشرية . على ان نفوسهم انقبضت والوانهم امتقعت لما دنوا من مدينة الشمس ولم يخرج احد لاستقبالهم ولا رأوا انيسًا في الساحة العمومية التي جرت عادتهم ان يجتمعوا فيها للمحادثة والمشاورة بل كانت علامات الموت بادية على المدينة بسكون حركتها وسكوت سكانها فنزلوا من المركبات واسرعوا الى دار الحكومة واذا الاقرباء والاصدقاء والمعارف والخلان مطروحون على الارض بين ميت ومميت وذلك لانهُ لم يبقَ في المدينة بعد سفرهم منها الاَّ ثلثون نسمة فثارت عليهم ريح هوجاء اخربت جانبًا من مساكنهم واتلفت آخر زرعهم وغرسهم وفرّ من بقي حيًا منهم ولجأ الى دار الحكومة خوفًا من زعازعها . فنشت بينهم حمّى خبيثة اهلكت اولاً الضعفاء بينهم ثم انهكت قوى الاقوياء حتّى لم يبقَ لهم في الحياة مطمع ولا في نفوس الرجاء متزع . فنسي رجال الحملة ما كانوا فيهِ من الزهو والفخر والاماني والاحلام ولم يبقَ لهم همٌّ الاَّ تمريض المرضى وحفظ حياتهم

ولكن ماذا يجدي التمريض والاعتناء والبرد يزيد كل يوم اشتدادًا بهبوب ريح صرصر اقامت بينهم و بين شعاع الشمس حجابًا من الضباب فطلبوا السلامة باقفال النوافذ والابواب واضرام النيران وقطع كل اتصال بينهم و بين الهواء خارج الدار فلم يغنِهم ذلك فتيلاً بل كان البرد يهرأهم واحدًا بعد واحد حتّى لم يبقَ منهم الاَّ الختام وقرينته حواء فباتا ينتظران حكم القدر عالمين انهُ لا بد لهما من يوم ينضمان فيهِ الى من عبر ويكون ذلك آخر ايام البشر . و بينما هما ينتظران الموت من يوم الى يوم هجمت الرياح وتقطعت اوصال السحب واشرقت الشمس من خلالها فانفض غبار الموت عنهما وركبا مركبة هوائية وانطادا في الجو فاذا الثلج قد غطّى المدينة وما حولها ولكنهُ كان في ناحية الشمال اخفّ منهُ في سائر النواحي فنزلا وحملا ما امكنهما حملهُ من الزاد وطارا شمالاً لعلهما يجدان واحة تسكن بين الثلج والجمد

الفصل السادس

قال الراوي وكانت صحراء افريقية وما يليها جنوبًا من المناوز اقلّ البقاع بردًا في تلك الايام بسبب طبيعة تربتها وقلة الامطار والثلوج فيها وكان هواؤها يختر بحرارة الشمس ثم يهب رياحًا على بلاد النوبة وجزيرة العرب و يرجع الى خط الاستواء عن طريق سيلان فوقى بذلك بعض بلاد مصر من الثلج والجمد وما زال الختام وحواء يجوبان الفضاء حتّى بلغا بلاد مصر وقد جمد نيلها ولم يعد يجري اليها فنظرا من بعيد واذا الهرم الكبير متربع في صحراء الجيزة خربًا ولكنهُ رافع رأسهُ الى السماء كما كان من قديم الزمان . وقد صبر بمتانة شكلهِ الهندسي على غير الايام وصروف الدهر شاهدًا على قدم التمدّن البشري من قيام اول ملك في الناس الى انقراض آخر مولود منهم . ولعلهُ هو الوحيد الذي بلغ غايتهُ من مصنوعات البشر فان خوفو ملك مصر بناهُ لحفظ جثتهِ الى آخر الدهر فبقي على مرّ الاحقاب حتّى جاء آخر البشر يستذري فيهِ من الثلج والريح الصرصر

وعصفت الرياح حينئذٍ وسقطت الثلوج فقالت حواء لقرينها تعال نستريح ههنا ان الموت لا بدّ منهُ على كل حال فدعني اموت بين ذراعيك بسلام . فنزلا في نقرة بين الانقاض وجلسا ينظران الى الثلوج التي سدّت الفضاء وقد اخترق البرد الى مفاصل حواء وقرينها يضمها الى صدرهِ ليعشها بحرارة فؤادهِ والريح تزيد عصفًا وتسفي الثلوج على جوانب الهرم . فعلم الختام ان الساعة قد دنت فقال لحواء ألسنا نحن آخر البشر وخاتمة الناس على وجهِ هذه البسيطة فما الذي بقي من امجادهم ومفاخرهم و بلدانهم وممالكهم ومبتكرات عقولهم وعلومهم وفنونهم وصناعاتهم ومخترعاتهم . ألا انها كلها ظل زائل وشيء باطل قد كفنتهُ الثلوج ودفن في الارض التي امست قبرًا للجميع

فقالت حواء طالما سمعت يربات الجمال اللواتي سطون على قلوب الملوك وذلّلن العظماء وتلألأن كالبدور في سماء تاريخ البشر ولكن اين هنّ الآن واين الحب والجمال كلّ ذلك زال مع الزمان . على اني احبّك وعلى حبك اموت . ثم قالت اني ناعسة واود ان انام والقت ذراعيها حولهُ ونامت . فوضع رأسها على ركبتهِ وقال وانا احبك وساسهر عليكِ ثم شخص الى الفضاء وقد ران الكرى على جفنيهِ واسدل غشاوةً على عينيهِ فنام وكان نومهُ الختام . ولم يسمع عند ذلك الاّ حنين الرياح كانها تنادي اوّل الفراعنة من الرقاد بعد طول الآماد . وظلت الثلوج تنزل على وجه الارض ذرورًا . وظلّت الارض تدور على محورها قرونًا ودهورًا . وظلت الشمس تزيد دكنةً وتقلّ حرارة ونورًا . حتّى طفئ نورها وخمدت نارها

والارض تكرّ حولها في الظلام كرورًا . وظلت الشوابت تشعشع في السماء وتستعر سعيرًا . وظلّ الكون الغير المحدود يجري عديد الكواكب شموسًا واروضًا وبدورًا . بين مأهولة بالاحياء ومهجورة امست رموسًا وقبورًا . وظل الحب في عوالم الاحياء يفيض تحت عين السرمدي بهجةً وسرورًا

تذييل على ما تقدم

علم القارئ ان الباعث على استخراج هذه المقالة ونشرها ورود ذكرها بين جماعة من اهل العلم بمدينة جنيفا وقد اشتدّت مناقشتهم عليها بين مادحٍ لها وقادحٍ فيها . والذي رأيناهُ حينئذٍ انها مبنية على الاحتمال وان من شاء ان يطلق العنان للخيال ويحذو حذو المسيو فلامريون لا يتعذّر عليهِ الاستدلال ببعض الادلة العلمية على موت آخر انسان حرقًا او غرقًا او رَعْنًا او جوعًا الى غير ذلك من الاقوال التي وردت في فكاهات العلماء . ولكن حبّذا مثل الراقي الذي بنى المسيو فلامريون مقالتهُ عليهِ وجاريناهُ على ان آخر انسان قبض في كنف الاهرام فلا يسعنا ان نكتفي بما اكتفى بهِ في الختام . والاّ فيكون كل هذا الكون ضربًا من الهذيان واشبه الاشياء بالعوبة الصبيان

وبيان ذلك انهُ سواءٌ كان هذا الكون غير محدود كما يقول فلامريون وآخرون او محدودًا كما يقول غيرهم حكمنا بقياس التمثيل كما حكم فلامريون نفسهُ ان ما اصاب البشر وسائر الاحياء على الارض يصيب الاحياء الأُخرى في العوالم الأُخرى . وان الاحياء يبدون من عالمٍ بعد عالمٍ الى ما لا نهاية لهُ . وان كل اجتهادهم ومفاخرهم وبلدانهم وممالكهم ومبتكرات عقولهم وعلومهم وفنونهم وصناعاتهم ومخترعاتهم ظل زائل وشيء باطل تمرّ عليهِ الدهور فتغادرهُ كالهباء المنثور . فلا يكون لذلك غاية على الاطلاق بل يكون السرمدي في خلقهِ الاحياء ومحقها من كوكب بعد كوكب كالطفل (نستغفر الله) ينفخ في رغوة الصابون حتّى تتطاير فواقعها في الهواء ثم تنقع وتعدم البقاء او كغلام يوقد صفوف الشمع نهارًا ثم ينفخ عليها فيطفئها شمعة بعد شمعة بلا غاية ولا قصد . فهل يجوز على عقل عاقل ان السرمدي الذي يشهد كل ما في هذا الكون بانهُ اعقل من كل ما في الكون يخلق ويمحق بلا غاية ولا قصد تعالى عن هذا التشبيه علوًّا كبيرًا . فان كان البشر لم يخلقوا سدًى بل وجدوا لقصد وغاية لم يبلغوها وهم في قيد الحياة فلا بدّ لبلوغهم اياها من ان يبقوا بعد الممات . وحاصل ما تقدّم ان غاية الوجود تستلزم الخلود وما احسن ما قالهُ ابو العلاء

خلقَ الناسُ للبقاء فضلّت امّةٌ يحسبونهم للنفادِ